

هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي الموضوعات والأساليب

فائزة بن عمور

أ.د أحمد قيطون

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

Ruséme:

La recherche s'insère dans le domaine de l'ancienne littérature, qui dirige son attention essentiellement pour la littérature maghrébine et andalouse, sa problématique se situe entre La satire en tant qu'un art trouvée depuis l'antiquité et la ville comme un inconstant, pour voir la présence de l'art de la satire civile dans la littérature maghrébine et andalouse, et quel sont les sujets et les formes qu'il prit ? de ce fait la recherche se base sur la collection des documents qui seront étudiés par la suite de ses deux cotés prosaïque et poétique à la fois, puis elle se conclut par une étude artistique et esthétique du côté poétique.

الملخص:

يندرج البحث المقدم في إطار الأدب القديم، والذي يوجه عنايته خاصة للمغربي والأندلسي منه، أما إشكاليته فقائمة بين الهجاء كفن وجد منذ القديم والمدينة كمتغير، لننظر في مدى حضور فن هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي، وما الموضوعات والأشكال التي احتضنته؟ فيتكئ البحث من خلال ذلك على جمع المادة واستقصائها بشقيها النثري والشعري، ثم يختم بدراسة فنية وجمالية للجانب الشعري.

المقدمة: ربطت الإنسان بالمكان علاقات متعددة ومختلفة بحسب نفسيته وفكره أولاً، وبحسب طبيعة المكان ومتغيراته ثانياً منها، الرغبة والنفور، الشوق والارتياح، والامتعاظ وغيرها...

وتعتبر المدينة من أهم الأماكن التي كانت طرفاً في هذه الجدلية، إذ مع التوسع المكاني والجغرافي والتطور الحضاري الذي عرفته البشرية صارت المكان الذي يستطيع من خلاله الفرد أن يمارس حياته التواصلية مع الآخرين، نبحث من خلال هذه الورقة في علاقة المبدع مع مدينته من جانب المنظور الهجائي وكيف كان الأديب يصور واقع هذه المدن المغربية والأندلسية من الوجهة السلبية وما الأشياء التي كانت تحمله على هجائها والأساليب التي اتخذها في ذلك.

الموضوعات: اختلفت موضوعات هجاء المدن في الأدبين المغربي والأندلسي، إذ لم يرتبط الهجاء منذ بداياته الأولى بما ارتبط به الهجاء في المشرق، من عصية قبلية أدت بالشعراء إلى ذم القبائل، والذي كان وثيق الصلة بنفي الفضائل الأخلاقية عن المهجو والنيل من الأعراض، أما في المغرب فقد اختفت القبلية وصار الفرد أكثر ارتباطاً بالمدينة التي ينتمي إليها لذلك توجه هذا التوجه المديني، و صار يركز على قسوة الطبيعة كشدة البرد، وحر القيظ، ووعورة المسالك في بعض الأحيان وخاصة إذا كان الشاعر من الرحالة الذين تعودوا السير في أرض الله يقول "لسان الدين بن الخطيب" في "بيرة"¹ مثلاً:

بَطْرِيقُ بِيرَةِ أَجْبَلُ وَعُقَابُ لَا يَرْتَجِي فِيهَا النَجَاةَ عِقَابُ
فَكَأَنَّمَا الْمَاشِي عَلَيْهَا مُذْنَبٌ وَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْعُقَابُ عِقَابُ²

كما يقول أيضا في "مالقة"³:

وعلى ذلك فطينها يشقى به فطينها، وأزبالها تحي به سبالها، وسروبها يستمد منها مشروبها، فسحبها متغيرة وكوكب أذمانها متحيرة، وأقطارها جد شاسعة، وأزقتها حرجة غير واسعة...⁴
كما يقول "بكر بن حماد" في "تاهرت"⁵:

مَا أَحْشَنَ الْبَرْدَ وَرِيْعَانَهُ وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِتَاهَرْتِ
تَبْدُو مِنَ الْغَيْمِ إِذَا مَا بَدَتْ كَأَنهَا تُنْشَرُ مِنْ تَخْتِ⁶

كما كان هجاء المدن لصيقا بهجاء أهلها سواء تعلق الأمر بالعوادات والتقاليد أو بأخلاق أهلها، وغالبا ما ارتبط بذكر الأجناس، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أن المدن في هذه المناطق كانت خليطا من الإفرنج والعرب والمستعربين والبربر يقول "اليكي" في أهل "فاس" مثلا:

فِرَاقُ الْهَمِّ عِنْدَ خُرُوجِ فَاسٍ لِكُلِّ مَلَمَةٍ تُخْشَى وَبَاسٍ
فَأَمَّا أَرْضُهَا فَأَجَلُ أَرْضٍ وَأَمَّا أَهْلُهَا فَأَخْسُ نَاسٍ
بِلَادٌ لَمْ تَكُنْ وَطَنًا لِحُرٍّ وَلَا اشْتَمَلَتْ عَلَى رَجُلٍ مُوَاسِي⁷

ويقول الرحالة "العبدري"⁸ في أهالي مدينة "طرابلس"⁹:

"بل هي أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس على ناشئ منهم فضل لذي شبيهة ولا لذي الفضل بينهم هيبة. ترى أجساما حاضرة والعقول في عقل غيابات الغيبة وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ من العيوب الغيبة إلى بخل لو مازج ماء البحر جمد وخالط الهواء سكن في أذار وركد وخلق يضيق به متسع الفضاء، ونزق يحق له في ذمهم كشف الغطاء وأذهان أربت في الضيق على الخاتم سواء لديها من حارب ومن سالم، كأنهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم فسبحان من خلقهم"

إلا أنه لم تغب تماما مضامين الهجاء القبلي فقد استحضرت تلك المعاني في بعض الأحيان من مثل قول "أبي العباس الجراوي":

يَا بْنَ السَّبِيلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادِلَا¹⁰ لَا تَنْزِلَنَّ عَلَى بَنِي عَفْجُومٍ
أَرْضٌ أَغَارَ بِهَا الْعَدُوُّ فَلَنْ تَرَى إِلَّا مُجَاوِبَةَ الصَّدَى لِلنُّومِ
قَوْمٌ طَوَوْ ذِكْرَ السَّمَاحَةِ بَيْنَهُمْ لَكِنَّهُمْ نَشَرُوا لَوَاءَ اللَّوْمِ
لَا يَمْلِكُونَ إِذَا اسْتُبِيحَ حَرِيمُهُمْ إِلَّا الصَّرَاحُ بِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ¹¹

غير أن ما يختلف في هذه الأبيات أن الشاعر من أهل هذه القبيلة فصار هجاؤه بذلك أقرب إلى مواضيع الصعلكة:

يَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ أَرْضِ فَاسٍ مِنْ بَنِي الْمَلْجُومِ¹²

كما ظهرت مضامين هجاء حول ضعف الإيمان، والمذاهب الإسلامية التي ظهرت في بعض المدن كقول "لسان الدين بن الخطيب":

مَكْنَأَسَةٌ¹³ حُشِرَتْ بِهَا زُمَرُ الْعِدَا فَمَدَى بَرِيدٍ فِيهِ أَلْفُ مُرِيدٍ
مِنْ وَاصِلٍ لِلْجُوعِ لَا لِرِيَاضَةٍ أَوْ لَابَسٍ لِلصُّوفِ غَيْرُ مُرِيدٍ
فَإِذَا سَلَكَتْ طَرِيقَهَا مُتَّصِفًا فَاتَوَّ السُّلُوكَ بِهَا عَلَى التَّجْرِيدِ¹⁴

ومن المضامين التي صارت تستهوي الهجائين أيضا ذكر ما يعانون من حشرات المدينة وهذا منه كثير، إذ صار بعضهم يرسم صورا هجائية هزلية في هذا الموضوع ويتفنن في الوصف ومن ذلك قول "لسان الدين" أيضا:

بَتَافَلَفَلْتُ¹⁵ بَرْعُوثَ كَثِيرٍ يَضْجُ لِهَوْلِهِ الْمَلِكُ الْأَثِيرُ
إِذَا عَجَلْنَا بِالْوُثْبِ قُلْنَا أَثَارَ جَرَادٍ مَزْرَعَةٍ مَثِيرٍ¹⁶

وقوله:

إِذَا مَرَرْتُ بِوَادِي الْأَشَا¹⁷ فَقُلْ رَبِّ مِنْ لَدَغَةِ سَلَمٍ
وَكَيْفَ السَّلَامَةُ فِي مَنْزِلٍ فِيهِ عُصْبَةٌ مِنْ بَنِي أَرْقَمٍ¹⁸

كما يقول "الحصري":

ضَاقَتْ بِلَنَسِيَةِ بِي وَذَاذَ عَنِي غُمُوضِي
رَقَصَ الْبَرَاغِيثُ فِيهَا عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ¹⁹

ومثل قول "الشفشاووني" الذي يذكر أنواع الحشرات الموجودة في مدينة مراكش ويخص بالذكر العقارب:

أُظِلُّ فِي نَصَبٍ مِمَّا أَكَادِ مِنْ نَفْضِ الْغُبَارِ وَمِنْ طَرْدِ الذَّبَابِينَ
وَطُولُ لَيْلِي فِي كَرٍّ وَفِي تَعَبٍ مَا بَيْنَ بَقٍّ وَنَامُوسٍ يُنَاغِينِي
أَبَيْتُ أَحْرَسُ فَرَشِي مِنْ عَقَارِبِهَا وَالْقَلْبُ فِي فِكْرِ مِنْهَا وَتَحْمِينِ
إِذَا رَأَيْتُ سَوَادَ مَرٍّ بِي وَأَتَى ظَنَنْتُهُ عَقْرَبًا دَبَّتْ لِتُؤْذِنِي²⁰

هذا عن مجال المضامين الذي كان له علاقة بذكر الحياة المعيشية في المدينة وبكل سلبياتها، ونلاحظ أن الشعراء قليلا ما كانوا يتعرضون إلى ما هو سياسي بقدر ما نالوا في موضوعاتهم من أهالي المدن ومن ذكر السلبيات الطبيعية فيها.

1- الأساليب: وقد كانت اللغة التي استعملها الشعراء في ذم المدن مباشرة وتقديرية واضحة، وإن كان الهجاء على العموم، دائم الارتباط بهذا النوع من اللغة، والهدف من وراء ذلك النيل من المهجو، حتى يكون الشعر المنسوج في ذمه تلوكة السنة العامي كما المتقف، وتحفظه القرائح لعلنا ندرج بعض الأمثلة ليتضح الحال. يقول أحد الشعراء في مدينة "سرت":

يَا سِرْتِ لَا سِرْتِ بِكَ الْأَنْفُسُ لِسَانُ مَدْحِي فِيكُمْ أَخْرَسُ
أَلْبَسْتُمُ الْقُبْحَ فَلَا مَنَظَرَ يَرُوقُ مِنْكُمْ لَأَ وَلَا مَلْبَسُ²¹

يتحدث الشاعر عن غياب سرور النفس، وانعقاد اللسان في المدح، والقبح، في لغة مباشرة وواضحة لا غموض فيها ولا موارد.

كما يقول "بكر بن علي الصابوني" أيضا:

كُلُّ سُوسِي بِسُوسِهِ نَفْسُهُ نَفْسُ حَسِيْسِهِ
بَعْضُهُمْ يَنْهَشُ بَعْضًا كِكِلَابٍ فِي فَرِيْسَةِ²²

أما عن الألفاظ فقد عمد الشعراء الهجاؤون إلى انتقاء معجم دلالي مناسب للهجاء كالرداءة، الخرس، النجس، اللعن، السوء، النقص، القبح، اللؤم... ويذهب كثير من النقاد إلى القول أن الشعراء المغاربة كانوا يأنفون استعمال الكلمات النابية في أشعارهم الهجائية، وهذا ما يمكن أن نفنده، إذ الحكم لا يبنى على الإطلاق مادام بن بسام الذي يؤرخ

لأطول مدة زمنية من الأدب الأندلسي في كتابه الذخيرة، قد تعفف عن ذكر كل ما يتعلق بالهجاء وصان كتابه عن إيراده. كما يمكننا القول بأنه قد صادفتنا الكثير من الألفاظ النابية التي تجعل من الهجاء مقذعا وسبا فاحشا ليس فقط في الجانب الشعري بل حتى في النثري منه، ولنا فيما سبق من رحلة العبدري خير نموذج وكذا أشعار "اليكي"، و من ذلك أيضا قول "أحمد بن فتح" قاضي تاهرت في أهل "فاس":

إِسْلَحْ عَلَى كُلِّ فَاسِيٍّ مَرَرْتَ بِهِ بِالْعُدُوتَيْنِ مَعًا، لَا تُبْقِينَ أَحَدًا²³

ومن الأساليب الإنشائية التي اعتمدت في هجاء المدن أيضا الدعاء على المدينة أو أهلها واللعن، فقد اتخذ بعض الشعراء هذا الأسلوب ليفرغوا طاقتهم النفسية الهجائية ويزيدوا الهجاء قدرة على التعبير وإيصال أفكارهم. من ذلك قول أحدهم:

فَمَتَى تَلْعَنُ بِلَادًا مَرَّةً فَاجْعَلِ اللَّعْنَةَ دَأْبًا لِنَتْسِ²⁴

وقال "المخزومي الأعمى" أيضا:

عَلَى أَهْلِ مُرْسِيَّةٍ لَعْنَةً تَعُمُّ الدِّيَارَ وَأَرْبَابَهَا²⁵

ومن الدعاء على المدن قول "لسان الدين بن الخطيب":

لَا جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا مَا سَقَى غَيْثُ بِلَادِ اللَّهِ يَا بِلْدُودُ²⁶

وقوله أيضا في أهالي مدينة سلا:

قَبِّحَهَا اللَّهُ مِنْ وَجْهِهِ أَدْحَضَهَا اللَّهُ مِنْ دَعَاوِي²⁷

أما عن الصور البيانية فقد استعملت بعضا منها وإنما كان الهدف منها توضيح المعنى في ذهن السامع وتعميق شدة الهجاء ووقعه من مثل قول الشاعر "بكر بن حماد"

نَفَرَحُ بِالشَّمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ كَفَرَحَةِ الدِّمِيِّ بِالسَّبَبِ²⁸

وكقول الأديب لسان الدين بن الخطيب في إحدى المدن:

مَنَارَهَا قَعْدَ الْبَانِي بِنَصْبَتِهِ فَلَا تُثِيرُ إِلَيْكَ عَيْنَ مُغْتَبِطٍ

كَأَنَّهُ فَيْشَةٌ جَاءُوا لِقَلْفَتِهَا بِخَاتِنٍ قَطَ مِنْهَا النِّصْفَ عَنْ غَلَطٍ²⁹

كما يقذف أبو بكر بن مجبر مدينة "قفصة" بالزنا في تشبيهه بالمرأة الفاجرة:

تِلْكَ الْبَغْيِ الَّتِي خَانَتْ فَحَاقَ بِهَا وَبِالزَّنَاةِ بِهَا رَجَمٌ وَتَغْرِيبٌ³⁰

ويستعين "أبو عبد الله محمد" في هجائه لمدينة "صفاقس" باستعارة جمالية من طبيعة المنطقة ومن ظاهرة المد والجزر البحرية فيقول:

وُلِيْتُهَا فَتَوَلَّتْنِي الْهُومُ وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ سَفَرِي فِي أَرْضِهَا نَصَبًا

قَدْ عَايَنَ الْبَحْرُ قُبْحًا فِي جَوَانِبِهَا فَكُلَّمَا هُمْ أَنْ يَدْنُوا لَهَا هَرَبًا³¹

كما وظف بعض الشعراء الأسلوب الحكائي ومعلوم أن الحكيم أسرع الفنون التصاقا بالذهن يقول "الجرأوي" مثلا:

مَشَى اللُّؤْمُ فِي الدُّنْيَا طَرِيدًا يَجُوبُ بِلَادَ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَلَمَّا أَتَى فَاسًا تَلَقَّاهُ أَهْلُهَا وَقَالُوا لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا³²

لعبت الصور البيانية على العموم دورا كبيرا في تقريب الصورة إلى المتلقي، وساعدت الشاعر في الإمعان في الهجاء، كما ساهمت كثيرا في بعث روح السخرية في الشعر الهجائي. ننقل بعد هذه القراءة السريعة في المضامين والأساليب إلى الإيقاع للنظر فيما كان يؤثره الشعراء الهجاؤون في هذا الجانب.

2- الإيقاع في فن هجاء المدن

أ- الموسيقى الخارجية: من المعلوم أن للإيقاع دور كبير في جعل النص الشعري أكثر تأثيرا وأسهل تداولاً، ولذلك نجد الشعراء يتخيرون من الإيقاع الشعري ما يناسب موضوعاتهم، وإذ قمنا بفحص للأوزان التي أدرجت في موضوع هجاء المدن نجد أن الأوزان الخفيفة الإيقاع كانت الأكثر انتشاراً، مثل البسيط والسريع ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

صَفَاقِسُ لَنَا صَفَى عَيْشٌ لِسَاكِنِهَا وَلَا سَقَى أَرْضَهَا غَيْثٌ إِذَا انْسَكَبَا
نَاهِيكَ مِنْ بَلَدَةٍ مَنْ حَلَّ سَاحَتَهَا عَانَى الْعَادِيَيْنِ الرُّومَ وَالْعَرَبَا
كَمْ ظَلَّ فِي الْبَرِّ مَسْلُوبًا بِضَاعَتِهِ وَبَاتَ فِي الْبَحْرِ يَشْكُو الْأَسْرَ وَالْعَطْبَا³³

ومثل قول "عثمان بن عبد الله القيسي السلاجي" (609):

خُذُوا ضِمَانِي أَلَا تَقْلِحُوا أَبَدًا وَلَوْ شَرَبْتُمْ مِدَادَ الْكُتُبِ بِالصَّخْفِ
أَنْتُمْ صِغَارٌ كِبَارٌ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ لَا يَهْتَدِي مَنْ يَقِيسُ الدَّرَّ بِالصَّدْفِ³⁴

وفي مطلع البسيط أنشد "أبو عبد الله بن ياسين شاطبي":

شَاطِبِيَّةٌ قَرْيَةٌ ظَنِينَةٌ لَيْسَتْ لِمَنْ أَمَهَا مُعِينَةٌ
تَهْتَضِمُ الطَّيِّبَ اهْتِضَامًا وَتَأْنِفُ الدَّهْرَ أَنْ تُعِينَهُ
وَالْخُبْتُ الْمَحْضُ تَصْطَفِيهِ ضِدًا لِمَا جَاءَ فِي الْمَدِينَةِ³⁵

ومن الأوزان التي رآها الشعراء مناسبة للهجاء السريع إذ نجد الكثير منهم نظموا قصائدهم على منواله ونستحضر هنا قول الشاعر في "تنس":

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ أَرْضِ تَنْسَ مَقْعَدُ اللُّؤْمِ الْمُصَفَّى وَالدَّنَسِ
بَلَدَةٌ لَا يَنْزِلُ الْقَطْرُ بِهَا وَالنَّدَى فِي أَهْلِهَا حَرْفٌ دَرَسَ³⁶

وقول "لسان الدين بن الخطيب" في مدينة "سلا":

أَهْلُ سَلَا صَاحَتْ بِهِمْ صَائِحَةٌ غَادِيَّةٌ فِي دُورِهِمْ رَائِحَةٌ
يَكْفِيهِمْ مِنْ عَوَرٍ أَنَّهُ رِيحَانُهُمْ لَيْسَتْ لَهُ رَائِحَةٌ³⁷

ولم يكتف الهجاؤون بالأوزان الخفيفة المناسبة عادة لغرض الهجاء بل نظموا إضافة لذلك في غيرها ومن ذلك البحر الطويل حيث يقول أحمد المقري:

دَخَلْتُ بِلَادَ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ بَسْكَرَةِ يَبَسَا³⁸

وقول "أبو عنان" فيها أيضا وفي نفس البحر:

وَيَا قُبْحَ مَا اسْوَدَ الْقَتَامَ بِوَجْهِهَا فَمَذْ غُشِيَ الْإِبْصَارُ لَمْ تُبْصِرِ الشَّمْسُ
فَخُسْرًا وَسُحْقًا لَابْنِ هَانِي لَقَدْ غَوَى بِمَذْ بِلَادَ الزَّابِ إِذْ عَدِمَ الْحَسَا³⁹

وفي الكامل يقول "الجرابي":

يَا بْنَ السَّبِيلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادِلَا لَا تَنْزِلَنَّ عَلَى بَنِي غَفْجُومٍ
أَرْضُ أَغَارِ الْعَدُوِّ بِهَا فَلَنْ تَرَى إِلَّا مُجَاوِبَةَ الصَّدَى لِلْبُومِ⁴⁰

وعلى الرغم من ذلك يبقى توظيف الأوزان الخفيفة مثل البسيط والسريع أكثر تداولاً لأن موضوع الهجاء يتطلب هذا النوع من البحور الشعرية إذ يستطيع الهجاء أن يجمع كل خواطره وصوره الكاريكاتورية، ويخرجها بأسلوب خفيف سهل الحفظ والتداول، وأكثر تأثيراً في نفوس المتلقين له، كما أن الملاحظ على العموم، أن الشعراء اعتمدوا أكثر على المقطوعات الشعرية وقلموا ما نجد من كتب قصيدة كاملة في موضوع هجاء المدن.

ب - الموسيقى الداخلية: كما أن للموسيقى الداخلية دور كبير في اللعب على أوتار النص، وكثيراً ما عمد الشاعر المغربي إلى التلاعب ببعض الألفاظ وتكرار بعضها الآخر، كما نجد أيضاً تكراراً لبعض الأصوات أكثر من مرة في المقطوعة الواحدة ولنتأمل مثلاً حرف القاف في هذه المقطوعة الصغيرة:

قَلَقْتُ وَحُقَّ بَأْنِ يَقْلَقَا مَصُونٌ غَدَا غَرَضًا لِلشَّقَا
حَلَلْتُ بِلَادًا كَسْتَنِي بِهَا يَدُ اللَّيْثِ مِنْ سَقَمٍ يَلْمَقَا
وَرَدْتُ قَلَمْرِيَّةً طَامِعَا فَلَمْ أَلْفِ بَرًّا وَلَا مَرْفَقَا
حُرِمْتُ كَأَنِّي دُونَ الْوَرَى طَلَبْتُ الْعُقُوقَ بِهَا الْأَبْلَقَا⁴¹

تتضح هذه الأبيات بالقلقلة التي أكسبت المقطوعة نغماً موسيقياً خاصاً جعلت المعاني تغيب نوعاً ما وراء الصخب النغمي الذي أحدثه تكرار حرف القاف ثلاث عشرة مرة خلال أربعة أبيات فقط. وقس على ذلك أيضاً تكرار صوت الراء في هذه المقطوعة:

إِلَى أَيْنِ الْفَرَارُ وَلَا فَرَارَ وَمَنْ لِي بِالْفَرَارِ وَلَا قَرَارَ
أَرَى الْأَوْغَادَ يَغْتَمِرُونَ دُورًا وَمَالِي فِي بِلَادِ اللَّهِ قَرَارَ
إِذَا رَكِبُوا الْمَذَاكِي وَالْمَطَايَا فَمَرْكُوبِي عَلَى شَرْفِي حِمَارَ
أَجُولُ فَلَا أَرَى إِلَّا رِعَاعًا كِبَارُهُمْ إِذَا اخْتَبَرُوا صِغَارَ
أَبَاجَةٍ لَا وَقَاكَ اللَّهُ شَرًّا فَأَهْلُكَ أَهْلُ مَفْسَدَةٍ شِرَارَ⁴²

فقد تكرر حرف الراء أكثر من ثلاث وعشرين مرة، والراء كما هو معلوم حرف تكراري منح بتعده في هذه المقطوعة نغماً موسيقياً عذبا.

أما بالنسبة لتكرار الألفاظ فنجد ذلك عند بعض الشعراء، يقول "إبراهيم بن محمد الأصيلي":

دَخَلْتُ فَاسًا وَبِي شَوْقٌ إِلَى فَاسٍ والحين يأخذ بالعَيْنَيْنِ والرَّاسِ
فَلَسْتُ أَدْخُلُ فَاسًا مَا حَيَّيْتُ وَلَوْ أُعْطِيتُ فَاسًا بِمَا فِيهَا مِنَ النَّاسِ⁴³

ونجد هذه الخاصية تتكرر أكثر عند "لسان الدين بن الخطيب" فنجده يقول مثلاً:

بِطَرِيقِ بَيْرَةٍ أَجْبَلُ وَعُقَابُ لا يَرتَجي فيها النجاة فيها عِقَابُ
فَكَأَنَّمَا المَاشِي عَلَيْهَا مُذْنِبٌ وَكَأَنَّمَا تِلْكَ العُقَابُ عِقَابُ⁴⁴

ويقول أيضاً:

وَهتُ مِنِّي القَوَى بِطَرِيقِ شَاطِئِ وَدَارَ عَلَى تَأْلَمِي الإِزَارُ
فَلا سَنَى الإِلَهَ مَزَارَ شَاطِئِ إِذَا مَا شَاطِئُ شَطَّ بِهَا المَزَارُ⁴⁵

ويقول في "غِيضة وحش الليل" من ثغر "لوشة":

بِغِيضَةٍ وَحَشِ اللَّيْلِ خَوْفٌ وَوَحْشَةٌ كَأَنَّ فُؤَادِي وَحْشَةً قَدْ أَعَارَهَا
وَلَكِنَّ هَذِي أَقْفَرْتُ مِنْ أَنْيْسِهَا وَغِيضَةُ قَلْبِي يَسْكُنُ هَهُمُ دَارَهَا⁴⁶

يتلاعب "لسان الدين بن الخطيب" في هذه الأبيات بتكرار بعض الكلمات ويستعين في ذلك بتنوع معانيها فيكسب مقطوعاته إيقاعاً يسهل حفظها وتأثيرها في المتلقين لها.

الخاتمة: يبقى لنا أن نقول إن فن هجاء المدن في الأدب المغربي والأندلسي بشقيه الشعري والنثري، قد تنوعت مواضيعه بين طبيعية قاسية ووعرة وأجواء حارة وباردة، وحضرية كالعادات والتقاليد والأفكار، ليمتد إلى أخلاق وسلوكات أهالي المدن ومعاملاتهم، وقد اختار الأديباء الأساليب المناسبة لذلك من تعابير وألفاظ تتلاءم وموضوع الهجاء، كما اختاروا الأوزان الخفيفة المناسبة والتي يسهل حفظها وتداولها، واستطاع الأديباء أن يكيفوا الذم بحسب حجاتهم النفسية والاجتماعية وحتى الإبداعية. ويبقى هذا الموضوع يحتاج إلى العديد من الدراسات التي تسبر غوره ومكنوناته، خاصة من الوجهة النفسية والخلقية لأنها تصور جانباً من شخصية المبدع أو دراسته من الوجهة الاجتماعية والتاريخية لأنها تصور واقع الحياة الاجتماعية في فترة من الفترات التاريخية.

الهوامش:

¹. هي بالإسبانية vera تقع شمال شرق مملكة غرناطة.

². لسان الدين بن الخطيب، الديوان، ص320.

³. بفتح اللام والقاف كلمة عجمية، مدينة بالأندلس من أعمال رية.

⁴. لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار، ص90.

⁵. مدينة مشهورة من مدن المغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان.

⁶. بكر بن حماد التاهرتي، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، تح: ص61.

⁷. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص122.

⁸ أبو محمد العبدري الحاحي صاحب "الرحلة المغربية".

⁹. من أقدم المدن الليبية وأكثرها شهرة.

10. تادلي من بلاد المغرب وهي مدينة قديمة أزلية.
11. المقرئ التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص514، ينظر أيضا أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، ص356، وفيه نزلت بدلا من مررت.
12. نفسه.
13. هي بالإسبانية Mequinez، تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كم بالمغرب الأقصى.
14. لسان الدين بن الخطيب، الديوان، ص340.
15. مدينة من إقليم تامنسا في بلاد المغرب.
16. ابن الخطيب، الديوان، ص380.
17. مدينة تقع شمال شرق غرناطة تبعد عنها بنحو 55 كم.
18. ابن الخطيب، الديوان، ص210.
19. العباس السملالي، الإعلام، ج08، ص114.
20. أحمد ابن قاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، ص413.
21. العبدري، الرحلة المغربية، ص202.
22. ابن رشيق، حسن القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1406هـ - 1986م، ص98.
23. ياقوت الحموي، المعجم، ج4، ص230.
24. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص61.
25. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص118.
26. ابن الخطيب، الديوان، ص365.
27. نفسه، ص306.
28. بكر بن حماد، الدر الوقاد، ص61.
29. ابن الخطيب، الديوان، ص13.
30. التجاني أبو محمد، رحلة التجاني، ص139.
31. نفسه، ص69.
32. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص137.
33. التجاني أبو محمد، رحلة التجاني، ص139.
34. العباس السملالي، الإعلام، ج9، ص60.
35. صفوان بن إدريس، زاد المسافر، ص137.
36. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص63.
37. ابن الخطيب، الديوان، ص259.
38. النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح: محمد بن شقرون، ط1 دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م، ص441.
39. نفسه.
40. المقرئ التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص514.
41. ابن بسام، الذخيرة، ق3، م2، ص860.
42. ابن بسام المصدر السابق، ص861.
43. معجم البلدان، ج4، ص230.
44. ابن الخطيب، الديوان، ص320.
45. المصدر السابق، ص406.
46. نفسه، ص407.